نشأة فن الزخرفة

يذكر لنا التاريخ أن المصريين هم أول شعب عرف الزخرفة ، وعنهم نقل الكلدانيون وغزوا به الآشوريين والبابليين والفارسيين والفينيقيين والإغريق والرومان والبزنطيين .. ومنها إلى بقية شعوب أوروبا .. وقد أكد هذا الكلام العلامة الأثرى (السير/ فلندرس بترى) فى كتابه "الفن الزخرفى المصرى" بقوله : "إن العالم مدين بزخارفه للمصريين الذين أسسوا أول مدنية على الأرض" ..

ولما فتح العرب مصر دخل الفن فى طور آخر يتجلى فيه الأسلوب الزخرفى وهندسة البناء ، واستعملت فيه الآيات القرآنية والأشكال الهندسية .. ولقد أخرجت اليد المصرية فنًا جميلاً سهل المأخذ تمازجه العذوبة والمرونة وخفة الروح وسلامة الخيال كأنما للوحى والإلهام سر فى تكوينه .

ولقد اقتبس الإنسان الأول وحدات زخرفية من الطبيعة ، إذ عرف وحدة النقطة من الندى والمطر .. والخط من جذوع الأشجار ومنها تعرف أيضا على الخط الرأسى والمائل والأفقى أما الخط المنكسر فقد عرفه من موج البحر .. والخط الموج اتخذه عن سلاسل التلال والرمال .. والخط المنحني من الهلال .. والدائرى من البدر والفواكه .. والخطوط الحلزونية نقلها عن الأعاصير والزوابع ، كما أن المزخرف عرف التماثل من الكائنات الحية للتشابه بين كل من النصف الأيمن والأيسر .. فاستعمله فى تصميماته .. كما أنه عرف التكرار من أوراق الشجر على فروعها ومن تجاور حبيبات البسلة والقمح وغيرها .. كما تعَلم التداخل والتضافر من تداخل الفروع فى الغابات ..

والزخرفة تكون بطرق عديدة أهمها التكرار والنشر والتوزيع وقد راعينا أن نأتى بمئات النماذج لهذه الأشكال سواء الأشكال الدائرية أو الهندسية أو النثرية ..

التكرار : هو تجاور الوحدات بعضها بجوار بعض على وتيرة واحدة لا تختلف مهما تغيرت الأوضاع بقلب وحدة أو ميلها فنكون ملزمين هنا بتكرار كل تغيير يحدث وغالباً ما ينفذ التكرار فى إطارات إما مثلثة أو مربعة أو مستطيلة أو دائرية أو بيضاوية الشكل .

النثر : هو ملء مساحة بتنسيق ونظام تتكرر فيه الوحدات صفًا صفًا حتي تمتلئ المساحة المراد زخرفتها وقد يكون الترتيب مماثلاً لترتيب خلايا النحل أو قوالب الطوب فى البناء ، إذ توضع كل وحدة من وحدات الصف الثانى تحت نصفى وحدتين متجاورتين فى الصف الأول ويسمى هذا الترتيب بطريقة : "نصف الإسقاط ".

التوزيع : هو ملء مساحة بطريقة يقبل الذوق السليم توزيع الوحدات فيها وقد يغلب عليها الثمائل ..

" إبداعات الفنان المزخرف القديم "

أبدع المزخرف القديم فى أعماله الفنية إبداعات عظيمة .. فترك لنا تراثًا كبيراً من الأثاث والأوانى والنسيج والحلى والتطعيم والخزف، وآلات الطرب ونماذج السفن والأسرة المذهبة والكراسى التى صنعت أطرافها ومساندها على أشكال رءوس الحيوانات القوية المتحفزة ، والتى زين بعضها برسوم رمزية جميلة .. وقد بلغ الفنان الذروة فى تصميم القلائد والخواتم والأساور وحقق فيه الدقة فى فن الصياغة والتحلى بالأحجار الكريمة .

كما اهتم الفنان القديم بالحفر على الخشب والحجر مستخدمًا أشكالاً زخرفية ونقوشًا غاية فى الروعة كما اهتم الفنان بزخرفة الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوانات المحفورة والملونة كما اعتنى بتزيين القباب والهياكل والجدران بزخارف من الوحدات المرسومة لأشخاص وطيور وحيوانات فأدخلها فى وحدات زخرفية وهندسية إن كانت تدل على شيء فهى تدل على براعة الفنان المزخرف وخياله الواسع ورؤيته الفنية العالية ..

" الزخرفة فى الفن الشعبى "

استخدمت الزخرفة للتجميل والتزيين عند أهل الريف ، فقد استخدموا الوشم على الجسد بأشكال زخرفية للتعبير عن عقائد معينة . . كما استخدموا الزخرفة فى صناعتهم الشعبية اليدوية والتى يستخدمونها فى حياتهم اليومية مثل الأوانى والسجاجيد والفخار والصناديق . . وكانت الزخارف تلون بالألوان البدائية المتبانية كالأحمر والأزرق والأصفر . . وكانت هذه النقوش والزخارف بسيطة وتدل على الحياة الشعبية وترمز للقصص فى الأساطير والأحداث التاريخية التى تأثر بها الفنان الشعبى فعبر عنها بشكل رمزى . .

الزخرفة فى التاريخ

زخارف فن العصر الحجرى :

ظهر فن الزخرفة فى الحضارات البدائية فى العصر الحجرى القديم متمثلاً فى الحضارة "الشيلية" والحضارة "الأشيلية" ، وكانت أول رسوم الإنسان البدائي على حوائط الكهوف ، وعلى الحجر . وكانت الرسوم محصورة فى رسوم الحيوانات كالثيران والخيول والغزلان والنمور والأسود . كذلك رسوم الأشخاص والوحدات النباتية كالأشجار والفروع والزهور . . وقد أظهر الإنسان البدائى مهارة كبيرة فى التعبير عن فنه وذلك فى زخرفته الدقيقة للأوانى والأدوات التى كان يستخدمها . كما برع فى النقش والزخرفة على المنسوجات والزجاج والمعادن والأخشاب والجلود والفراء مستخدماً فى ذلك أدوات بدائية بسيطة جدًا ، واعتمد فى تصيماته على الوحدات الهندسية والزخارف النباتية وزخارف الإنسان والحيوان مع تلوينها بألوان طبيعية بسيطة وجدها في بيئته وهى غالبًا ما تكون أتربة ملونة ومساحيق الأحجار الملونة .

■ **زخارف الفن المصرى القديم :**

برع الفنان المصري القديم فى نقش جدران المعابد والمقابر الملكية وترك الملايين من هذه الزخارف والنقوش المجسمة كآثار تدل على روعة إتقانه لفن الزخرفة . . واستعمل فى تسجيل هذه النقوش والنصوص الهيروغليفية أسلوب النقش البارز وأسلوب النقش الغائر . . كما برع الفنان المصرى القديم فى تصميماته النباتية كزهرة اللوتس مستخدمًا النباتات فى الزخرفة عليها كما فى أوراق البردى وسعف النخيل ، كما امتازت الزخارف الهندسية المصرية بأشكالها المتنوعة التى استخدمت الخط المستقيم والمنحنى والمنكسر والدائرى ، كما غلب على الرسوم المصرية القديمة العناصر الرمزية ، فاللوتس كان يرمز إلى مصر العليا وكان البردى رمزًا لمصر السفلى وهكذا . . كما كان يوجد شعارات دينية أخرى كثيرة . . كما اهتم الفنان المصرى القديم بتنوع خاماته التى يقوم بالزخرفة عليها مثل الزجاج والبردى والفخار والنسيج والجلود والمعادن والخشب والأحجار وغيرها من الخامات الطبيعية الموجودة بكثرة فى الطبيعة .

■ **زخارف فن ما بين النهرين (العراق) :**

تاريخ العراق القديم به العديد من الحضارات أهمها : الحضارة السومرية والحضارة البابلية والحضازة الآشورية . . وقد تأثرت فنون العراق بقوة بالفن المصرى . واهتم الفنان العراقى القديم بنقوش الأوانى الحجرية ورسوم الآوانى الفخارية والرسوم داخل المعابد . . كما اهتم بالرسم الجدارى .. وعبَّر الفن العراقى القديم عن كثير من وجوه الحياة الحربية والاجتماعية والدينية ، كما نقش زخارفه على أعمدة تشبه المسلات وعلى الأفاريز الحجرية لجدران القصور . . وقد صورت زخارفهم الكثير من المشاهد الحربية التى اعتاد عليها الشعب العراقى منذ قديم الأزل . .

وقد بالغ الفنان العراقى فى تنميق زخارفه على الجلود والثياب . . كما امتاز الفن العراقى القديم بزيادة البروز فى النقوش وازدواج الخطوط مع اتسام هذه الخطوط بالقوة . . كما أخذت الأشكال الحيوانية والنباتية كرمز للخرافة والأسطورة متأثرة أيضا إلى حد كبير بالفن المصري القديم .

■ زخارف الفن الإغريقي القديم :

الفنان الإغريقى القديم استخدم أنواعًا جيدة من الأسطح التى يقوم بالنقش والزخرفة عليها . . فاستخدم الرخام الأبيض والمرمر والحجر الجيرى الأبيض الناعم .. لذلك خرجت أعمالهم بجمال ودقة فى التنفيذ .

ولكثرة المعابد الإغريقية عامل كبير فى إظهار زخارف ونقوش الفنان الإغريقى فكانت المعابد مادة خصبة له لكى يبدع ، ومساحات تسمح له بالعمل والإتقان في نفس الوقت . .

وقد برع الفنان الإغريقى فى الزخرفة على الخزف بكل أشكالها ، وكذلك النقش على المعادن والعاج والزخرفة على النسيج والأخشاب والجلود . .

كما اتخذ الفنان الإغريقى القديم عن الفن المصرى زهور اللوتس والبردى واللبلاب . . ولكن مع التغيير فى أشكالها واستخدموها فى الأشرطة والكرانيش الزخرفية . . كما ابتكروا وحدات هندسية جديدة من السلاسل المتصلة والخطوط المنكسرة المتصلة .

■ زخارف الفن الرومانى :

استمد الفن الرومانى روحه من الفن الإغريقى . . فالحضارات الإغريقية والرومانية حضارة واحدة متحدة السمات . . لذلك نجد أن الزخارف الرومانية قريبة الشبه إلى حد كبير من الزخارف الإغريقية . .

واعتمد أيضا الفنان الرومانى على زخرفة الأعمدة والكرانيش وكانت

الأعمدة الرومانية تنقسم إلى خمسة أنواع هى (العمود التوسكانى - العمود الأيونى - العمود المركب - العمود الدورى - العمود الكورنثى) .. كما برع الفنان الرومانى فى زخرفة الأرضيات ببلاطات من الرخام الملون وأحيانا كانت تغطى بزخارف من الفسيفساء فى تكوينات هندسية جميلة . . كما صور الفنان الرومانى حياته اليومية ومشاهد من المعارك الحربية . .

كما برع وأبدع فى زخارف المنسوجات والزجاج والنقش على الخشب والمعدن كما ازدادت أشكال السلاسل المتشابكة فى الأركان وقمة الأعمدة .

واستخدم الفنان الرومانى الأشكال الدائرية والحلزونية بكثرة والمساحات الرباعية التى تزينها الزهور والأوراق النباتية . . كما اهتم بتطعيم أعماله الزخرفية بالأحجار الملونة لكى تزيد أعماله جمالا إضافيا وإحساسًا بالدقة والروعة فى آن واحد . .

■ **زخارف الفن البيزنطى :**

تأثر الفن البيزنطى بفنون الشرق وبمؤثراتها الزخرفية الواضحة ، فبدلاً من تسجيل صور تمثل الملاحم والمعارك الحربية أو الحفلات أصبح فى حاجة إلى صور تمثل رجال الدين والأحداث والقصص الدينية وهذا ما وفرته فنون الشرق للفن البيزنطى .

وقد برع الفنان البيزنطى فى استخدام الزخارف فى الأكتاف الكروية والأركان والقبوات المستخدمة فى الكنائس والقصور والأسقف العالية ..

وكانت هذة الزخارف تضيف صفات الهيبة والوقار والجلال للمبانى . .

وكانت معظم زخارف ونقوش الفن البيزنطى نقوشًا كلاسيكية قديمة . . كذلك قام الفنان البيزنطي بتسجيل صور بعض الأشخاص مع التنوع فى المساحات والأشكال والخامات المستخدمة فى ذلك مع الاحتفاظ بطابع العصر الموجود فيه .. واعتمد الفنان البيزنطى على التجريد والتحوير فى أشكاله الزخرفية ، وكان الرمز الدينى واضحًا فى معظم الأعمال والنقوش. خصوصًا الأعمال المنقوشة على الأعمدة وأعمال الفسيفساء والمنسوجات ..

■ زخارف الفن الإسلامى :

تميزت زخارف الفن الإسلامى بتجسيم النقوش بحيث تكون مشابهة للطبيعة مع تغطية المساحات بالزخارف والزينة . . ومعظم التحف الفنية والعمائر الإسلامية تجدها مزدحمة بالزخرفة المتصلة ببعضها البعض . . وأخذ الفن الإسلامى من الزخارف مادة خصبة لإظهار الجانب الروحانى والدينى . . فالنقوش التى وجدت على جدران المساجد تحكى لنا هذا الاهتمام بالناحية الدينية . . والفنان الإسلامى اهتم بالصدق فى تمثيل الطبيعة واستلهم منها رسم زخارفه وموضوعاته الفنية المتنوعة .. وكان للتكرار أهمية ووسيلة للفنان للتغلب على مشكلة (ملء الفراغ) على السطوح المختلفة . والتكرار أنواع : منه التكرار البسيط والمتبادل الوحدات والمتماثل والمتساقط . . كما لعب التقسيم الهندسى الزخرفى دوراً رئيسيًا فى الفن الإسلامى . . كما أبدع الفنان الإسلامى فى استخدام الكتابة والخط فى الوحدات الزخرفية ، وأنتج روائع فنه بتداخل الخط بجميع أنواعه فى نقوشه وزخارفه . وللفن الإسلامى مدارس عديدة فى مصر والشام وإيران والأندلس والهند وغيرها، وقد اشتركت جميعها فى روعة ودقة الزخارف الفنية ..

وقد مر الفن الإسلامى بعدة عصور منها: العصر الأموى والعصر العباسى والعصر الطولونى والعصر الفاطمى والعصر الأيوبى والعصر المملوكى والعصر الفارسى والعصر العثمانى والعصر الأندلسى وكانت الزخارف تتأثر بالتالى بكل عصر وتنتج نقوشًا لها سمات خاصة بذلك العصر .

■ زخارف الفن الصينى :

عرف الفنان الصينى الزخرفة من خلال صناعة الفخار فى البداية . . ثم تحول إلى النقش والزخرفة على الجدران وعلى الجلود والنسيج والمعادن والأخشاب وبرع فيها . . فقد صوَّر الحياة اليومية وكذلك الأساطير المشهورة عن الصين . . وتمتاز زخارف الفن الصينى بطابع خاص يسهل

معرفته بمجرد النظر إليه فهو يعتمد على وضوح الخطوط الخارجية المكونة لوحداته مع كثرة التفاصيل الدقيقة وكثرة التدريجات اللونية . .

وقد استخدم الفنان الصينى جميع النباتات والزهور والأشجار فى زخارفه ونقوشه . . كما أضاف جمالا خاصًا إلى النقوش المستخدمة من الحيوانات والوحدات الطبيعية والهندسية ، كما استخدم الفنان الصينى التنين بشكل واضح كرمز من رموز الأساطير والحكايات الخرافية كما استخدم الحيوانات الضخمة كالأسود والنمور والأفيال فى كثير من زخارفه ونقوشه وكانت الخطوط والكتابة تستخدم كوحدات زخرفية وعناصر مكملة فى التكوينات . . وقد برع الفنان الصينى فى صناعة زخارف الشكمجيات والأثاث المنزلى من الخشب المحفور مع دقة فى الصناعة وروعة فى تنفيذ تلك الزخارف والنقوش .

■ **زخارف الفن اليابانى :**

يوجد شبه كبير بين زخارف الفن اليابانى مع مثيلتها من زخارف الفن الصينى ، فهى امتداد لثقافة وخبرات متشابهة . .

والمعروف عن الفنان اليابانى اهتمامه الشديد بالمنمنمات وأيضا النقوش الدقيقة وقد أظهر ذلك بوضوح فى زخارفه ونقوشه المتميزة . والمشغولات الزخرفية اليابانية مشهورة بروعة الذوق والتفانى فى الدقة .

كما تقدمت صناعات المعادن المنقوشة على اختلاف أنواعها تقدمًا مذهلاً . . كما برع الفنان اليابانى فى صناعة الصناعات الخزفية والأوانى والتى يدل رسمها على المهارة والقدرة على تكوين التصميم المجسم . . كذلك المنسوجات الحريرية والسجاجيد تحمل زخارف غاية فى الدقة وقد اعتمد الفنان اليابانى فى زخارفه على الألوان الزاهية الجميلة داخل المبانى.. فقد استخدم اللون الأزرق والأصفر المضىء والأخضر والأحمر الوردى . . وذلك لكى تظهر أعماله الزخرفية فى أبهى شكل .